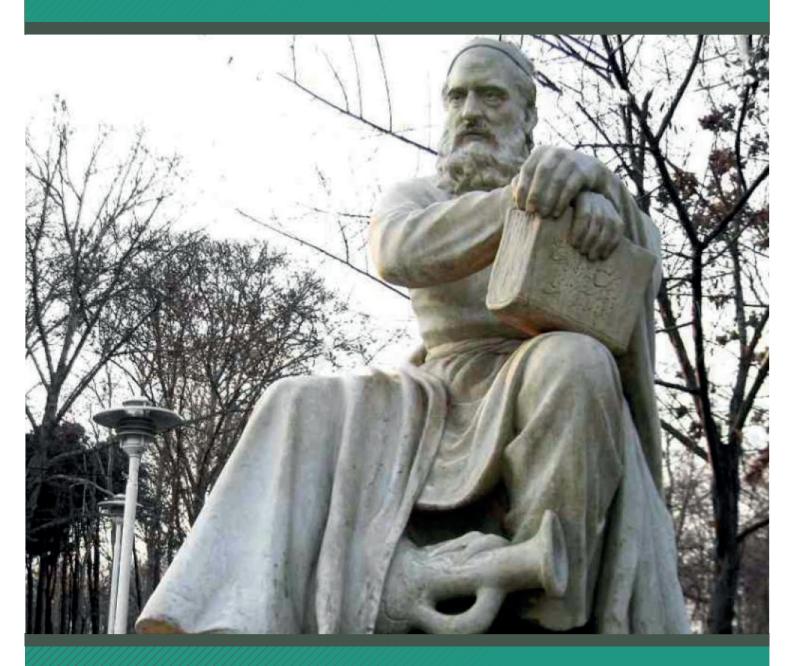
# فيما بين الشّعر والفلسـفة والتّصوّف من اتّصال رباعيّــات الخيّــام أنمــوذجًــا



**بشری زکاغ** باحثة مغربية مؤمنه کا کی بیال کی دور Mominoun Without Zorders سراسات والابدان www.mominoun.com



#### الملخّص:

تعدّ رباعيّات الخيام - باعتبارها مقطوعة شعريّة مكوّنة من أربعة أبيات - من أجود ما أبدعه الفكر والشّعر الفارسيّ الجامع بين عمق الفكرة وجمال العبارة وصدق الشّعور؛ فَحُقّ لها أن تنال مرتبة الخلود والعالميّة، كما حُقّ لعمر الخيّام أن يستوي بين فلاسفة فارس والعالم ككلّ، فيلسوفًا فذًا ومن كبار شعراء الفلسفة الإنسانيّة، وأن تكون رباعيّاته زادًا فلسفيًا وشعريًا وجماليًا وإنسانيًا، جعلت منه فيلسوف الشّعراء وشاعر الفلاسفة؛ حيث أثبت الكثير من الدّارسين أنّ «الخيّام كان رياضيًا يعالج الأرقام ويضرب أخماسها في أسداسها، وفلكيًا يساهر النّجوم ويرصد ثوابتها وسيّاراتها» (البستاني، 1992م، ص 10)، لكن لم يكن علم الأرقام يشغله عن علم الكلام، ولم يلهه سير النّجوم عن سير الأنام؛ «فقد كان في عزلته يستعيد رائد الطّرف من مسارح النّجوم والأقمار، ويحلّ عقال الفكر من مشكلات الاتّساع والأعشار، وينظر من حوله، فيرى من الطّبيعة نباتًا ناميًا ونهرًا جاريًا، وطائرًا شاديًا، ومن النّاس جائرًا عاتبًا، ولئيمًا مداجيًا، وتقيًا مرائيًا، فيطرق يفكر في شأن الإنسان ومصيره، فيعدّ بجهله وغروره، ويتراءى له الوجود فانيًا، والحاضر ماضيًا والمستقبل حاضرًا» (البستاني، 1992م، ص 10)، فكان بذلك فيلسوفًا وشاعرًا وصوفيًا والحاضر ماضيًا والمستقبل حاضرًا» (البستاني، 1992م، ص 10)، فكان بذلك فيلسوفًا وشاعرًا وصوفيًا ذا طريقة ومذهب.

من كلّ ما سبق، وبالاعتماد على العلاقة المتبادلة بين الشعر والفلسفة والتّصوّف في رباعيّات الخيّام؛ ستسعى هذه الدّراسة إلى الإجابة عن سؤال أساس مفاده: هل يمكن القطع مع الخيّام باعتباره أحد شعراء الخمريّات ممّن أحبّوا طعمها المرّ ولونها الصّافي، وكأسها الشّفافة، ودَنّها الملآن؟ أم أنّ الرّباعيّات دليل على أنّ الخيّام وجوديّ، ومتصوّف وفيلسوف متألّه، درس الفلسفة وبحث في الوجود والخلق والحرّيّة والجبر والاختيار، وارتقى إلى التّفكير في الله ثمّ الشّعور به؟



#### مقدّمة:

وُجد الإنسان منذ القديم في هذا العالم الذي هو جزء من كون واسع جدًا، يحتوي على ما لا يعد ولا يحصى من الموجودات، ومن ثمّ سعى جاهدًا إلى أخذ موقع ما من هذا العالم، وأخذ موقعًا محدّدًا من موجوداته، وممّا يجري فيه؛ فكان يسرح ببصره في عظمته وجماله وسحر طبيعته (النّجوم والبحر والرّيح والجبل.)، وكان من أثر حبّه إياه أن تعلّقت به أفكاره، فرغب في فهمه وكشف كنهه، وجاءت التّفسيرات الأولى أسطوريّة وغيبيّة وملحميّة، وكانت السّيادة فيها للخيال الّذي نجده في الشّعر والحكايات والقصص، وتطوّرت هذه التّفسيرات تدريجيًا لتدفع به إلى الرّغبة في فهم العالم أدق مما يتيحه مجرّد التأمل الخارجي والحسّ الجماليّ، ثمّ انطلقت الشّرارة الأولى للفكر الإنسانيّ الذّهنيّ باحثًا ومستكشفًا للعالم، وراغبًا في كشف أسراره وقوانينه، اعتمادًا على مبادئ العقل وقوانينه، كحدث تاريخيّ وحضاريّ ارتبط ببنية ثقافيّة وفكرية جديدة، وأحدث مجموعة من التّناعدات والقطائع حول ما كان سائدًا من أشكال التّعبير والتّفكير الأخرى، نقصد بذلك؛ بداية فعل التّفلسف والانتقال مع الحضارة الإغريقيّة من الميتوس إلى اللّوغوس، انطلاقًا من الفلاسفة الأيونيّين الطّبيعيّين إلى سقراط الذي أنزل الفلسفة من السّماء إلى الأرض، وجعلها تنصبّ على فهم الإنسان بعدما كانت متعلّقة بالسّماء، إلى تلميذه أفلاطون الذي انشغل بفكرة إيجاد الحكم الصّالح في المدينة الفاضلة، وأسّس أكاديميّة لتدريس جميع فروع المعرفة، لتتواصل حلقات تطوّر الفكر الفلسفيّ مع تلميذه أرسطو الذي هيمنت فلسفته ومنطقه على الفكر البشريّ أكثر من 2000 عام تقريبًا، في الشّرة والغرب معًا.

تجلّت أهميّة أكاديميّة أفلاطون في استمرارها في تدريس وتعليم وتخريج العديد من الفلاسفة والمفكّرين، في مختلف فروع المعرفة طيلة تسعمائة عام، إلى أن أغلقت في القرن السّادس ميلاديّ، فهرب روّادها إلى بلاد فارس، ومن هناك انتقلت الفلسفة اليونانيّة إلى المشرق، وأخذت طريقها إلى الفرس الّذين قاموا بتطويرها وتطعيمها بالصبغة الإسلاميّة، وكان من أهم ما أخذه الفرس عن الإغريق؛ هو الفكر العقلانيّ النّقديّ، والفلسفة المتصلة بالواقع والإنسان، والنّظر إلى الطّبيعة نظرة علميّة عميقة، ومن أجود ما أبدعه الفكر والشّعر الفارسيّ، الجامع بين عمق الفكرة وجمال العبارة وصدق الشّعور، نجد رباعيّات «عمر الخيّام» باعتبارها مقطوعة شعريّة وفلسفيّة، حُقّ لها أن تنال مرتبة الخلود والعالميّة.

وانطلاقًا ممّا ورد في رباعيّات عمر الخيّام؛ سنسعى - في هذه الدّراسة - إلى الإجابة عن سؤال أساسيّ مفاده: هل يمكن القطع مع الخيّام باعتباره أحد شعراء الخمريات ممن أحبّوا طعمها المرّ ولونها الصّافي، وكأسها الشّفافة، ودَنِّها الملآن؟ أم أنّ الرّباعيّات دليل على أنّ الخيام وجوديّ، ومتصوّف وفيلسوف متألّه درس الفلسفة، وبحث في الوجود والخلق والحرّيّة والجبر والاختيار، وارتقى إلى التّفكير في الله ثمّ الشّعور به؟



## 1 - المكانة الفكريّة والعلميّة لعمر الخيام:

هو غياث الدين أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيام، يتراوح تاريخ ولادته بين سنة (1025 - 1050م)، على عهد السلطان «أرطغرل» أوّل ملوك السلاجقة، وقد أجمع العلماء على أنّه توفّى في نيسابور عام 1123م، ورُجّح أنه نيسابوري أبًا وجدًا، وكانت نيسابور في تلك الأيام عاصمة خراسان، زارها ياقوت الحموي ووصفها في «معجم البلدان» بأنّها: «مدينة عظيمة، ذات فضائل جسيمة، وهي معدن الفضلاء ومنبع العلماء» (الحموي، 1906م، ص 306).

أكثر عمر الخيّام، منذ صغره، من التّنقّل من أجل العلم، حتّى «استقرّ في بغداد عام 466ه/ 1074م» (عبابدة، 2011م، ص 136)، تلميذًا عند الإمام «الموفّق النّيسابوري»، وقد كان في زمانه ذا مكانة سامية ومقام رفيع، وعُرف عنه أنّ كلّ من درس على يديه نال المجد والشّهرة؛ لذلك حفظ عمر الخيّام القرآن الكريم، وأتقن علوم اللّغة والدّين، وأبدع في مختلف فنون المعرفة، وآثاره الخالدة شاهدة له في ذلك، وقد عدّ له الدّارسون ما يفوق 24 مؤلّفًا منها «رسالة في الجبر والمقابلة» كتبها بالعربيّة، وله - أيضًا - بضع رسائل أخرى في «المساحة والمكعّبات ومشكلات الحساب»، تدلّ على تضلّعه في العلوم الرّياضيّة وإبداعه فيها، ولو لم يكن رياضيًا عظيمًا لما كان فلكيًا عظيمًا، لدرجة أنّ انتدبه السّلطان ملكشاه لإصلاح التّاريخ الفارسيّ، ومن جملة تصانيفه الفلكيّة؛ جدول الأرصاد الّذي سمّاه ريجي ملكشاهي نسبة إلى هذا السّلطان؛ حيث أقام الخيّام في نيسابور مرصدًا فريدًا حقّق من خلاله تقويمًا شمسيًا جديدًا، استبدل بالتّقويم القمريّ، وله - أيضًا الخيّام في العلوم الطّبيعيّة، وأخرى في علم ما وراء الطّبيعة.

وقد ذكر المؤلّفان إدوارد كاسنار (Edward Kasner). وجيمز نيومان (Edward Kasner)، في كتابهما «التّخيّلات الرّياضيّة» (Edward Kasner, James Newman, 2001, 111) «أنّ عمر الخيّام كتابهما «التّخيّلات الرّياضيّة» قصائده المسماة بالرّباعيّات - إلّا أنّه فوق هذا كان رياضيًا بارعًا وفلكيًا أصيلًا»، وأضاف المؤلّف الغربيّ روس بول (Paul Ross) في كتابه «مختصر تاريخ الرّياضيّات»: «أنّ عمر الخيّام يعدّ بين علماء الرّياضيّات في القرن العشرين، نابغة في الرّياضيّات، لا سيّما في الإسلام»: (الجيوسي، 2005، ص 200)، ويقول المؤلّف سيد حسين نصر في كتابه «العلوم والحضارة في الإسلام»: «إنّ عمر الخيّام يعدّ فلتة زمانه» (عبابدة، 2011، ص137).

هذه المكانة العلميّة الزّاخرة الّتي توافرت للخيّام مكّنته من عدّة ألقاب تكريميّة رفيعة، فنجد: «الإمام، الدّستور، حجّة الحقّ، سيّد الحكماء، حكيم الدّنيا وفيلسوفها، وسيّد حكماء المشرق والمغرب، ووصف بأنّه «تلو ابن سينا»، وعديم القرين في علم النّجوم والحكمة، ونصير الحكمة والدّين، وإمام خراسان، وعلامة الزّمان» (زعيميان، 2003م، ص ص 28 - 29).



قُرنت حياة عمر الخيّام برجلين من مشهوري ذلك العصر: أوّلهما؛ «الحسن الصبّاح» مؤسّس الفرقة الإسماعيليّة، الّتي عُرفت - لاحقًا - بفرقة الحشّاشين، وثانيهما: «نظام الملك» وزير السّلطان ألب أرسلان، نجل السّلطان «أرطغرل»، ثمّ وزير حفيده «ملكشاه» بعد ذلك، وقد تعرّف عليهما الخيّام في حلقات دروس الإمام «الموفّق النيسابوري»؛ حيث عُقدت عُرى المودّة والصّداقة بينهم، واتّصف ثلاثتهم بالذّكاء والفطنة، وأقسموا على أن يتساعدوا فيما بينهم إذا حالف النّجاح أحدهم في حياته، وكان النّجاح الأوّل من نصيب نظام الملك؛ الذي احتلّ منصبًا رفيعًا يتمثّل في وزير السّلطان السّلجوقيّ، وعليه فقد برّ هذا الأخير بالقسّم الذي قطعه مع أصحابه، وقرّر أن يقتسم ما بلغ من شأن وسلطة مع رفقاء دربه؛ حيث أمر لعمر الخيام - الذي لم يكن يطمح لا لسلطة أو منصب سوى نشر العلم والمعرفة - بصرف راتب ثابت قدره 1200 مثقال ذهب في العام من خزينة نيسابور، بينما أسند للحسن الصبّاح - الطّموح إلى السّلطة - منصبًا رفيعًا في الدّولة.

تميّزت هذه الفترة بالكثير من المؤامرات والدّسائس والمحن، ولم تسلم منها حتّى علاقات القرابة والصّداقة المتينة؛ فقد تمكّن الحسن الصبّاح من منافسة نظام الملك في السّلطة، ممّا اضطر الأخير لطرده عن طريق مؤامرة حيكت من قبله، وحينها أقسم الحسن الصبّاح على الانتقام من صديقه نظام الملك، وقد تمّ له ذلك عن طريق اغتيال الوزير نظام الملك في نهاوند على يد أحد أفر اد فرقة الحشّاشين، ثمّ اغتيال السّلطان «ملكشاه» بعده بخمسة وثلاثين يومًا.

ونتيجة لما آلت إليه الأوضاع؛ عُزل الخيّام من عمله، وفقد راتبه ومصدر رزقه؛ بل وفقد من كان يدعمه ويحميه لنشر فكره وعلمه ومواقفه الجريئة دون مواربة: صديقه نظام الملك، والسّلطان ملكشاه؛ حيث حُرِّمت مؤلّفاته في المدارس والجامعات، وأحرقت باعتبارها مخالفة للشّرع، كما أحرق المرصد الّذي أنشأه، ونهب من طرف الغوغاء، وثار عليه الفقهاء والدّعاة، وقطعوا صلتهم به؛ بل وراحوا يرمونه بالكفر والإلحاد ويؤلّبون العامّة عليه، ومنهم: أبو حامد الغزالي؛ الّذي كان فيما سبق وشارك الخيّام في عدّة اجتماعات لبحث المسائل العلميّة والفلسفيّة ومناقشتها، لكن حين علم أنّه فيلسوف يخالفه في المشرب والاعتقاد قطع صلته به، كما رواه الشّهروزي في كتابه نزهة الأرواح (النّجفي، 1934م، ص27)، فعمّت الفوضى وانتشر العنف، وبهذه النّهاية المأساويّة انطوت صفحة من أكثر صفحات نيسابور والتّاريخ السّلجوقيّ تألّقًا وازدهارًا.

وجد الخيام نفسه - إثر ذلك - وهو يقارب الخمسين من عمره، مُعْوِزًا وحيدًا مهجورًا ومطاردًا من السّلطة الجديدة، يتذكّر أصدقاءه وأحبّاءه الذين تخطّفهم الموت من أمام عينيه الواحد بعد الآخر، وينظر من حوله «فيرى من النّاس جائرًا عاتيًا، ولئيمًا مداجيًا، وتقيًا مرائيًا، فيطرق يفكّر في شأن الإنسان ومصيره، فيتراءى له الوجود فانيًا، والحاضر ماضيًا والمستقبل حاضرًا» (البستاني، 1992م، ص 10)، وقد كان لهذه الظّروف عظيم التّأثير في فكره وقناعاته وفلسفته في الحياة.



## 2 - رباعيّات عمر الخيّام والتّرجمة:

ترجمة الشّعر فنّ فريد يتطلّب حشدًا من المعرفة والطّاقة النّفسيّة والفكريّة والإبداعيّة للمترجم، الّذي يتقبّل - بمحض اختياره - هذه العلاقة الشّاقة والجميلة، فليس أمام مترجم الشّعر أيّ مجال للتّراخي، «فالشّاعر الّذي أبدع النّصّ في لغته الأصليّة لم يدّخر جهدًا في تثقيف وتتحيف قصائده» (التّل، 1989م، ص 1)، فما بالك أن يكون النّصّ الأصليّ متعلّقًا برباعيّات عمر الخيّام إحدى روائع الأدب العالميّ، وأجود ما جادت به قريحة أحد أهرام الفكر والإبداع الفارسيّ.

ويتّفق الكثير من الباحثين في أنّ الخيّام عندما نظم الرّباعيّات لم يكن يحلم بما ستناله من حظوة وشهرة لدى حضارات وأمم غريبة عنه، وطنًا ولغةً وثقافةً ودينًا، ومبعث هذه الشّهرة يرجع - بالدّرجة الأولى - إلى فهم الخيّام معنى الحياة العميق «وفق عقيدة المدنيّة الحاضرة وذوقها، وقد أفادته دساتير هذه العقيدة الأساسية في رباعياته بأسلوب شعريّ بديع» (النّجفي، 1934م، ص 19)، وكأنّنا بالخيّام يخاطب الإنسانيّة جمعاء بنفس خطاب زرادوشت في «ملالف نيتشه»، بقوله: «علَّمت الناس جميع أفكاري، وأبّنت لهم جميع رغباتي؛ إذ أردت أن أجمع وأوحد ما في الإنسانيّة من بدد الأسرار وتصارف الحدثان، فقمت بينهم شاعرًا، أحلّ الرموز وأفتديهم من الصّدف العمياء، لأعلّمهم أن يبدعوا المستقبل وينقذوا بإبداعهم ما انصرم من الأحقاب، لقد وجهت الناس إلى إنقاذ الإنسانيّة، ممّا درج الماضي في أغوار ها بتغيير كلّ ما كان» (عطيّة، 2004م، ص 113).

لقد كان لقاء الخيام بالأمم الأخرى - خاصة الغربية - عن طريق الترجمة؛ حيث التفتت إليه هذه الأمم عظيم الالتفات، ونظرت إليه نظرة أوروبي معاصر حكيم، وعملت بما في تعاليمه من حكمة، ومضت على طريقته، وفي مجال الترجمة هناك شروط ومتطلبات أساسية، حتّى يستقيم النصّ المترجم على شاكلة النصّ الأصليّ، وأهمها؛ أن يكون المبدع من جنس الإبداع، لذلك؛ فخير من يترجم الشّعر هو الشّاعر؛ فهو الذي يستطيع - من خلال موهبته وخبرته - أن يدرك أسرار البلاغة وجماليّات تشكيل العبارة، وسبك المعنى، من حيث الجرس والمبنى والمعنى في القصيدة الّتي يترجمها، من هنا؛ تتضح أهميّة الشّاعر الإنجليزيّ ادوارد فيتزجيرالد (1809م - 1883م)، باعتباره أوّل من اكتشف الرّباعيّات، وعمل على ترجمتها إلى الإنجليزيّة سنة 1859م، وقد جاءت ترجمته من الرّوعة بحيث أصبحت واحدة من أهمّ القصائد في الأدب العالميّ وتاريخ الشّعر الإنجليزيّ، وقد شكّلت الطّبعات المتوالية لترجمته - ابتداء من ستينيّات القرن التّاسع عشر - انقلابًا واضحًا في الثّقافة الأوروبيّة والعالميّة.

اعترف «فيتز اجير الد» نفسه - مع ذلك - بأنّ ترجمته للرّباعيّات لم تتّسم بالأمانة في النّقل؛ فقد أطلق لنفسه الحرّيّة في إعادة تجميع مقاطع القصيدة وترتيب أبيات الشّعر، فدمج الرّباعيّات وأضاف إليها، وأوجد علاقات بين الرّباعيّات، ليخرج عملًا متكاملًا متر ابطًا؛ حيث استلهم عددًا من الرّباعيّات، وأبدع منها رائعة



مستقلة لا تطابق الرّباعيّات الأصليّة في مضامينها؛ إنّما أراد لها أن تكون بيانًا لمسيرة يوم كامل في حياة الخيّام؛ هو كالآتي: تطلع الشّمس، تفتح الحانة، الخيّام يقظ يفكّر، لكنّه يروح يغرق - رويدًا رويدًا - وهو يشرب في بحر الوجود مأخوذًا بفناء الحياة، وعجز العقل البشريّ عن حلّ لغز الوجود وكثير من المشكلات، وحين يسكن عنه السّكر ويسدل اللّيل أستاره يغوص في بحر الفكر من جديد.

انتقلت الرّباعيّات من الإنجليزيّة إلى اللّغات الأخرى بشكل لم يسبق له مثيل؛ فترجمت إلى الفرنسيّة والألمانيّة والرّوسيّة والإيطاليّة وغيرها من اللّغات، في الوقت الّذي ظلّ فيه الخيّام في الشّرق منتميًا إلى زمرة الرّياضيّين والفلكيّين، حتّى ترجمت الرّباعيّات عن الإنجليزيّة إلى الفارسيّة ثمّ العربيّة، وتردّد صداها في الأبحاث والنّدوات والكتب الغربيّة.

ثمّ تنبّه الأدباء والنّقّاد إلى قيمة الرّباعيّات ومضمونها الفكريّ، وغناها الشّعوريّ، وقيمها الفنيّة والجماليّة، وتحمّسوا لنقلها إلى لغة الضّاد، وعكفوا على ترجمتها إمّا شعرًا أو نثرًا، ومن التّرجمات الشّعريّة الّتي ذاع صيتها؛ نجد ترجمة وديع البستاني؛ «الّذي نقل الرّباعيّات عن الشّاعر الإنجليزيّ فيتزجيرالد، «وسهّلت له معرفته بالانجليزيّة وشاعريّته أن يترجم روح القصيدة الإنجليزيّة، ويلمّ بأفكار الرّباعيّات ويصوغها شعرًا» (الحنفي، 1992م، ص 197)، أمّا ترجمة أحمد رامي؛ فقد نقلها عن الفارسيّة إلى الشّعر العربيّ في رباعيّات، كما نظمها الخيّام مستعينًا بمختلف نسخ التّرجمة العربيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة والألمانيّة، وقد عدّها النّقّاد أجمل التّرجمات وافضلها إبداعًا ونظمًا، كما لاقت رواجًا كبيرًا في العالم العربي - خاصّة - بعد أن غنّتها سيدة الغناء العربيّ أم كلثوم، وترجمة إبراهيم العريض: الّذي أطلق على الرّباعيّات اسم «الوجوديّة ما قبل عصرها»، وقد ترجم الرّباعيّات عن الأصل الفارسيّ، وأضاف رونقًا جميلًا للشّعر الفارسيّ؛ لأنّه اهتم بروح عمر الخيّام الشّعريّة (روح النّصّ)، وعدّها النّقّاد أدقّ ترجمة من ناحية المعنى، وهي مخالفة لفكرة التّرجمة الّتي وضعها الشّاعر الإنجليزيّ (فيتزجيرالد)، «الّتي اعتمدت على مخطوط للخيّام ظهر في كلكتا بالهند بعد 5 قرون من وفاة الخيام؛ لذلك جاءت ترجمته لهذه الرّباعيّات باعتبارها - أوّلًا - فتحًا في مجال التّرجمة ونقل النّص، وثانيًا: لأنّها أوّل عمل عربيّ متميّز لرباعيّات الشّاعر الفارسيّ (أخبار الخليج، 2013م)، وترجمة أحمد الصّافي النّجفي؛ الّذي مكث في طهران 8 سنوات، كان همّه الوحيد فيها دراسة الأدب الفارسيّ والنّفوذ إلى معانيه الدّقيقة ومراميه السّامية، ليصل منها إلى الينبوع الصّافي الّذي سالت منه خيالات عمر الخيام، وقد عد النّقاد ترجمته أدقّ ترجمة من النّاحية اللّغويّة، إضافة إلى ترجمات أخرى، أمّا عن التّرجمات النّثريّة؛ فنجد أحمد حامد الصراف، وبدر توفيق؛ الّذي تفرّد في أمانة نقلها دون إضافات، ووهبي التّل؛ الّذي ترجم الرّباعيّات بالاستعانة بالأصل الفارسيّ والتّرجمة التّركيّة والعربيّة، وجب أن نشير - هنا - إلى أنّ هذه ليست كلِّ التّرجمات؛ إنّما المشهور منها، وستبقى بسحر ها ومضمونها الإنسانيّ وحيرتها الوجوديّة مصدر إغراء للأدباء العرب، لنقلها في كلّ مرّة إلى العربيّة إمعانًا في الدّقّة والقرب من روحها وروح مبتكِر ها



## 3 - عمر الخيّام شاعر الخمرة:

في كلَّ الأقطار والأمصار وعلى مرّ العصور والأزمنة، ومع كلَّ الحضارات ما غبر منها، وما استحدث، كان الشَّعر حاضرًا كشكل من أشكال التَّعبير الثَّقافيّ، ووسيلة من وسائل الاتّصال والتّواصل مع النّفس في مختلف مكنوناتها، ومع الآخر المختلف في جميع تجلياته.

تبعًا لذلك؛ استأثر الشّعر باهتمام النّاس، وازداد اطّرادًا تغلغله داخل الواقع المعيش للمجتمعات، وانتهى الأمر بأن أصبح هذا الفنّ مرآة الشّعوب، وآلة تصويرها الفوتوغرافيّ، يعكس ويصوّر الحياة الإنسانيّة بمختلف تجليّاتها، فيحفظ قفزاتها كما يصوّر سقطاتها.

في هذا السّياق تَعرِض لنا رباعيّات عمر الخيّام باعتبارها رائعة شعريّة من أجود ما أبدعته الذّائقة الإنسانيّة والفارسيّة، فحُقّ لها أن تنال مرتبة الخلود والعالميّة، كما حُقّ لعمر الخيام - بفضلها - أن يستوي شاعرًا فذًا، ومن كبار شعراء الفلسفة الإنسانيّة، بين شعراء فارس والعالم ككلّ، وأن تكون رباعيّاته زادًا شعريًا وجماليًا وإنسانيًا، جعلت منه فيلسوف الشّعراء وشاعر الفلاسفة، ورغم طغيان الأفكار والتّأمّلات في رباعيّات الخيام؛ فإنّنا نجد - أيضًا - الشّاعر والأديب الّذي أثرى الشّعر الفارسيّ - بشكل خاصّ - والأدب العالميّ بشكل عامّ، بإبداعات لها خصائصها الفنّية، ومقوّماتها الأدبيّة، وظّف فيها - بطريقة بديعة - جميع معارفه، وموارد ثقافته المتعدّدة، الّتي تدلّ على رسوخ قدمه في العلوم والرّياضيّات، والعلوم الذّهنيّة والأدبيّة.

وأهم ما يميّز الخيّام عن غيره من شعراء عصره؛ أنّه كان بارعًا في إيصال أفكاره وآراءه، باستعمال أصعب الوسائل: الشّعر، وكانت لغته في ذلك إعمال الفكر، والتّأمّل الّذي يصل الإنسان بالكون الكبير وبالحياة الطّليقة من قبود الزّمان والمكان، فجاءت كلماته مقولبة في لغة شعريّة عذبة وعميقة، غير أنّها لم تنقطع - كذلك - عن البرهنة المنطقيّة، وقد شكّلت هذه الرّؤية المزدوجة لدى الخيّام - الّتي التحمت فيها نظرته الفلسفيّة وتأمّلاته الميتافيزيقيّة بتجربته الشّعريّة والجماليّة - الجسر الّذي حاول من خلاله العبور إلى البرزخ الفاصل ما بين الخبرة الإنسانيّة (المعرفة)، والوجود الموضوعيّ القائم بحدّ ذاته (الواقع)، وبين هذا وذلك، نظر الخيام نظرة تأمّليّة عميقة إلى الإنسان المعذّب المفتون والحائر في نفاقه وتظاهره وريائه، في عجزه وفقره، في كبريائه وتساميه، في حيرته بين الأرض وما يشدّه إليها، والسّماء وما يربطه بها، وذلك في لغة شعريّة جاهد قدر الإمكان على جعلها تخدم الهدف الّذي من أجله كتب الرّباعيّات.

وقد أجمع كل من درس الرّباعيّات أو ترجمها، أنّ الرّباعيّات ـ كمقطوعة شعريّة ـ مكوّنة من أربعة أبيات شكّلت إضافة نوعيّة للأدب الفارسيّ، ومنحته «مطارف لا تبلى على الأيام، وحبته أحسن ما يحبو شاعر لغة من عبقريّة ونبوغ» (النّجفي، 1934م، ص 19)، فلم يكن الخيام مجرّد رياضيّ يعالج الأرقام



ويضرب أخماسها في أسداسها، أو فلكيّ يساهر النّجوم ويرصد ثوابتها وسياراتها؛ إنّما كان - أيضًا - شاعرًا متمكّنًا، «يستعيد - في عزلته - رائد الطّرف من مسارح النّجوم والأقمار، ويحلّ عقال الفكر من مشكلات الاتّساع والأعشار» (البستاني، 1992م، ص 10)، ويروح ينظم الشّعر في رباعيّات يسبكها معنى وجرسًا وموسيقا، وقد كان موفّقًا في انتقاء ألفاظه و عباراته؛ فالانسجام والسّلاسة والتشبيهات والاستعارات والسّهولة وعدم التّكلّف، كلّ ذلك من الصّفات البارزة في الرّباعيّات، وتعبيراته الدّقيقة، ومعانيه العميقة تقوم حقّ القيام بأداء ما يُحمّلها من المعاني الدّالة على نظرته العميقة للحياة والبشر والوجود، «إنّ شعرًا يحتوي مثل هذه الميزات المتنوّعة، ويضمن في شطوره الأربعة ما يحتاج شرحه إلى عدّة صفحات من المعاني الحكيمة العالية المتينة، هو - دون شكّ - محصول عبقريّة فذّة ونبوغ نادر» (النّجفي، 1934م، ص 19).

وأكثر الكلمات المترددة في معجم الرباعيّات هي (الخمرة)، وكلّ ما يتعلّق بعالم الشّراب، بدءًا بأسمائها وأوصافها، مرورًا بأوانيها وأشكالها وكرومها، ووصفًا لمجالسها وما تتضمّنه من غناء وطرب ولهو، وتتبّعًا لتأثيرها في النّفس ودبيبها في مفاصل الجسد، وما يحصل منها من نشوة، وما يجري في مجلسها من أحداث وطرائف، وهو ما جعل الكثير من الباحثين والمترجمين يصفون كلّ من اختار هذا المنحى - لغة وواقعًا - صفة «خيّامي المشرب»، ويصنّفون الرّباعيّات ضمن القصائد الخمريّة، أو الأبيات الّتي تضمّ قصائد في هذا الموضوع، غير أنّ رباعيّات الخيام، تكاد تكون نوعًا مستقلًا بذاته، لما تتميّز به من خصوصيّة في الوصف والسّياق، وما تحمله من أبعاد وجوديّة وفكريّة وتأمّليّة ذات منحى فلسفيّ ظاهر؛ فقد اتّخذ الخيّام من المجتمع مدخلًا لفهم الوجود والحياة والعدم والجبر والسّعادة والجمال والمعرفة، ومخرجًا وحيدًا من سجن المجتمع ونفاقه وريائه؛ لذلك - كما نجعل أبا نوّاس رائد الشّعر الخمريّ في القصائد العربيّة - فمن المنطقيّ - أيضًا - أن نجعل للرّباعيّات وصاحبها مكانة متميّزة في هذا الجنس الشّعريّ.

ويقول الخيّام - في ذلك - من ترجمة أحمد رامي:

أفق وهات الكأس أنعم بها

واكشف خفايا النّفس من حجبها

ورو أوصالي بها قبلما

يصاغ دَنّ الخمر من تربها

ويبدأ فهم معنى الوجود لدى الخيّام في الرّباعيّات بالتّجربة الوجوديّة الفرديّة الدّاخلية من جهة، وبمعايشة الواقع من جهة أخرى، غير أنّ رفض الخيّام هذا الواقع - خاصّة - بعد فقد صديقه وداعمه نظام الملك وانقطاع رزقه، وتشرّده في البلاد، واتّهامه بالكفر والخروج من الملّة والدّين، قد دفعه إلى عيش هذا الواقع وجدانيًا أكثر منه عقليًا، لذلك؛ راح ينظم الشّعر بشكل متحرّر من كلّ القيود؛ بل امتدّت قريحته إلى أكثر



محرّمات عصره (الخمرة) للتّأكيد على حرّيّته في بيئة ليست حرّة، على حدّ تعبير ألبير كامو (Albert) (كامو، 1983م، ص 19)¹.

وفي ذلك يقول، من ترجمة أحمد رامي:

لم أشرب الخمر ابتغاء الطّرب

ولا دعتني قلّة في الأدب

لكنّ إحساسي نزاعًا إلى

إطلاق نفسي كان كلّ السّبب

لذلك؛ يمكن عدّ الرّباعيّات الخمريّة صورة لتجربة الخيّام الشّعريّة المتحرّرة واللّاهية في الحياة، التي عرض من خلالها ابنة الكرم وأوصافها ومجلسها وذوقها وتأثيرها، وعكس من خلالها هموم الذّات الإنسانيّة التي تعايش حالة البحث الدّائم عن الرّاحة والسّعادة، لتجدها في نعيم الكأس ولذّاته، ولعمر الخيّام رؤية شعريّة يتميّز فيها بنظرته العميقة للخمرة والجوانب الخفيّة الكامنة فيها، فخمرته متعدّدة الأبعاد عبّر من خلالها - ضمنيًا - عن إرادة في التّغيير وثورة على الواقع - واقع مجتمعه الذي عاشه آنذاك بصراعاته من خلالها - ضمنيًا - عن إرادة في التّغيير وثورة على الواقع - واقع مجتمعه الذي عاشه آنذاك بصراعاته ومحنه ودسائسه - فخمرته فنيّة، اجتماعيّة، سياسيّة، أخلاقيّة وصوفيّة أيضًا، أراد لها أن تكون صورة عن حضارة عصره، وثورة على مدّعيي الزّهد والوقار، وهي رمز لهمومه وآلامه الوجوديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة، الّتي حصلت له من عدم اكتراث النّاس بالأمور الإنسانيّة والوجوديّة الّتي شغل بها، فوجد في خمرته متنفّىًا لذلك، «فالخيّام يطلب اللّهو بالخمر والغزل؛ لأنّه طلب ما هو أعلى من ذلك في دنياه، فلم يحده ولم يخطر له رجاء في وجوده، طلب الحقيقة، وطلب أسرار الحياة، وطلب النّفاذ إلى ما بعد الموت، فلم يصل ولم يول من ذلك - كما أورد أحمد رامي - أنّ الذي كان يدفع الخيّام إلى الكأس والشّراب وطلب المتعة؛ هو يأسه من إدراك الحكمة الّتي تسيّر الأشياء، أو ما يسوقه الخالق من قضاء، حتّى إذا يئس من كلّ شيء ارتمي في أحضان الأنس واندفع إلى شفة الكأس، فلم تجده الحكمة، فيتلافي فهم أسرار الوجود، من كلّ شيء ارتمى في أحضان الأنس واندفع إلى شفة الكأس، فلم تجده الحكمة، فيتلافي فهم أسرار الوجود، من كلّ شيء ومن نشوته وتهذأ أعصابه، فيشعر بالخطيئة وينيب إلى الله بسأله الرّحمة.

يقول في ذلك من ترجمة أحمد رامي:

قد مزّق الموت سنّار الظّلام

<sup>1</sup> من الأقوال المأثورة عن (ألبير كامو/ Albert Camus): «إنّ الطّريقة الوحيدة الّتي يمكن أن نعيش بها في عالم لا يتمتع بالحرّيّة؛ هي أن نكون أحرارًا تمامًا، حتّى يكون وجودنا هو حالة التّمرّد».



فاغنم صفا الوقت وهات المدام واطرب فإنّ البدر من بعدنا يسري علينا في طباق الرّغام

ومن جهة أخرى؛ هناك من عدّ خمرة الخيّام رمز المعرفة والوصول إلى الحقيقة المطلقة والذّات العليا، فكما المتصوّف يتيه بحثًا عن حبّ الله والرّاحة بقربه، فالمخمور يتيه بحثًا عن الرّاحة مع خمرته، فيناجيها مناجاة الصّوفيّ لربّه، ويخلع عليها صفات خلعها كبار المتصوّفة على خمرتهم الإلهيّة (ابن الفارض)، لذلك؛ عدّها الخيّام ذلك المشروب الذي يسرّ النّفس ويمتّع الفؤاد، ويحلّ عقال الفكر، ممّا استشكل على الفهم، وقد أكّد على ذلك العقّاد في قوله: «لقد ظلموك يا صاح بالتّصوّف، كما ظلموك بتناسخ الأرواح، وصدق مترجمك فيتزجرالد، وهو أدرى بترجمة نفسك وشعرك من أولئك الرّواة والمؤرّخين، فما كانت خمرتك بالخمرة الإلهيّة، وما كانت عباراتك بالإشارات الخفيّة، لكنّك - كما قال المترجم الأمين - كنت تنظم الشّعر في ماء العناقيد، وكان نظمك في معناه أكثر من شرابك إياه، وذلك فصل المقال فيما بين قولك وعملك من اتصال» (العقّاد، 1946م، ص ص 255 - 627).

ويقول في ذلك من ترجمة أحمد رامي:

اشرب فمثواك التّراب المهيل

بلا حبيب مؤنس أو خليل

وانشق عبير العيش في فجره

فليس يزهو الورود بعد الذّبول

## 4 - عمر الخيّام الفيلسوف المتألّه:

تميّزت بلاد الفارس والبلاد العربيّة المجاورة في عهد الخيّام بكثرة الصّراعات السّياسيّة والمذهبيّة والفكريّة والكلاميّة، كما تميّزت باختلاط مجموعة من الشّعوب والأجناس (العرب المسلمون، الفرس، الهنود، الروم...)، وازدهار حركة التّرجمة بتأسيس بيت الحكمة في عهد المأمون لنقل الفكر اليونانيّ، وانتشار المدارس الدّينيّة والفلسفيّة في معظم أرجاء الإمبراطوريّة الإسلاميّة، الأمر الذي ساعد على انتشار الفلسفة وروّادها - خاصّة - اليونانيّة والهنديّة.



ويعد الخيّام وليد هذه الظّروف والبيئة، الأمر الذي كان له بالغ الأثر في فكره ومذهبه، وجعل منه فليسوفًا ومتصوفًا ذا طريقة ومذهب؛ إذ من الصّعب جدًا أن نجد كالخيّام شاعرًا وفيلسوفًا، «بنى عقيدته على أحكام معيّنة معلومة، ووضّح أفكاره ببيان وبلاغة كبيانه وبلاغته» (النّجفي، 1934م، ص 23)؛ ففي عصره اشتد الصّراع على الحكم والسلطة ونضج علم الكلام، واشتد النّزاع الفكريّ بين الفرق الكلاميّة (الأشاعرة والمعتزلة والحنابلة والجبريّة..)، وشاعت آراء الباطنيّة، وكثر الإقبال على التّأليف في مختلف العلوم والفنون، وتعدّدت الفرق والطّوائف، واشتد النّزاع بين الفلسفة والدّين، وانبرى الفقهاء يشحذون هممهم وطاقاتهم من أجل انتقاد الفلسفة ومعاداتها وتأليب العامّة على روّادها، باتّهامهم بالكفر والزّندقة والإلحاد، وفي مقابل ذلك؛ عظم أمر التّصوف، وكثر القائلون بالجدل ووحدة الوجود، وكثر الفلاسفة والأطباء والمهندسون والرّياضيّون والفلكيّون، وهو ما وفّر للخيّام وسطًا فكريًا وعلميًا ثريًا جعله يتتلمذ على نوابغ عصره من العلماء؛ فاختلف إلى بعضهم، واختلف بعضهم إليه، وكثرت بينهم المجادلات والمحاورات في عصره من العلماء؛ فاختلف إلى بعضهم، واختلف بعضهم إليه، وكثرت بينهم المجادلات والمحاورات في علوم شتّى، وكان لأولئك الّذين تتلمذ لهم وتتلمذوا عليه مكانة علميّة عظيمة في عصره، منهم «أبو حامد الغزالي» الذي كان يتردّد عليه لدراسة الفلسفة والرّياضيّات، إضافة إلى الزّمخشري والبيهقي وآخرون كُثر من هذا المستوى.

شكّل ما سبق من ظروف ومناسبات الجذور الفكرية الأساسية لفلسفة الخيّام ونظرته للحياة والكون، والعديد من القضايا الفلسفيّة الكبرى، بما فيها قضايا ما وراء الطّبيعة، وحقائق الأشياء، والوجود المطلق، والجبر، والموت والعدم، وحاول تفسير ما يدرك ويؤوّل ما يشعر به في قصيدته المسمّاة الرّباعيّات، فكانت نتيجة تفسير اته وتعليلاته؛ أن وضع نظريّاته الفلسفيّة الخاصّة به، ودوّنها في قالب شعريّ ثريّ جعل منه أثرًا فلسفيًا وشعريًا خالدًا، هكذا عاش عمر: «نظر يمنة ويسرة، فإذا دول تقوم ودول تفنى، وإذا النّفوس خلت من كريم العواطف، والقلوب أقفرت من رقيق الإحساس، إذا المتقرّبون إلى الملوك ينالون الحظوة لديهم وهم جهلاء، وإذا أدعياء الزّهد والصّلاح يجهرون بالتّقوى، وهم أخبث النّاس طوية، فقصر وقته على فئة من أصحاب سكن إليهم» (رامي، 2000م، ص 21).

قامت فلسفة الخيّام - بداية - على الإقرار بمحدوديّة القدرات البشريّة في الإحاطة بالقضايا الوجوديّة الكبرى، سيرًا على نهج فلسفة الشُكّاك اليونانيّة في العصر القديم، وديفيد هيوم في العصر الحديث، لذلك؛ عدّ الخيّام من الفلاسفة القائلين بعدم إمكان الوصول إلى معرفة أسرار الوجود والأزل، «لأنّ صور الحادثات لا ترتبط بالحقيقة المطلقة؛ إنّما ترتبط بأجهزتنا الحسّيّة» (النّجفي، 1934م، ص 23)، وكلّ ما لدى الإنسان هو مجموعة من التّفسيرات لانطباعاته وخِبراته، الّتي تؤدّي به إلى الاعتقاد بأنّ عالمًا موجودًا هناك، لكنّه يقع خارج نطاق إدراكه، فكلّ ما يصل إليه الإنسان من علم ومعرفة ليس الحقيقة والواقع؛ بل ما وافق وسائله الإدراكيّة، ولو جهّز بوسائل أخرى غير هذه لَر أى الأشياء على غير ما يراها، وأدركها على غير إدراكه الأوّل.

يقول الخيّام في ذلك، من ترجمة أحمد رامي:



أفنيت عمري في اكتناه القضاء

وكشف ما يحجبه في الخفاء

فلم أجد أسراره وانقضى

عمري وأحسست دبيب الفناء

إلى جانب ذلك؛ نظر الخيّام إلى الوجود والحادثات نظرة علميّة طبيعيّة، تنطبق انطباقًا شديدًا مع الفلسفة العلميّة الّتي ذهب إليها الفلاسفة الأيونيّون، واستقراء العديد من رباعيّاته يؤكّد أنّه آمن بالفلسفة الماديّة، الّتي أخذت أصولها وأحكامها عن العلوم الطّبيعيّة، وفي نظر الخيّام؛ الإنسان الّذي يموت وتودع جثّته التّراب عضوية جديدة - ذلك المعمل الكبير الّذي نسمّيه الطّبيعة - تتحلّل عناصره وتتبعثر، ثمّ تدخل في تركيبات عضويّة جديدة كالنّباتات والأزهار، وربّما صار بعضها كتلة طين في يد خزّاف يصنع منها آواني، وبذلك يستمرّ العالم في انحلال وتركيب دائم لا يعرف التّوقّف.

في ذلك؛ يقول من ترجمة أحمد رامي:

رأيت خزّافًا رحاه تدور

يجد في صوغ دنان الخمور

كأنّه يخلط في طينها

جمجمة الشّاه بساق الفقير

قادته هذه الفلسفة المادّية إلى التشاؤم والقنوط، وظهرت شخصيته من رباعيّاته بمظهر المرتاب القلق، «وذلك ما يدفع الباحث إلى الاعتقاد أنّه كان متشائمًا في عقيدته» (الصّرّاف، 1934م، ص 93)، وهو تشاؤم يختلف عن التشاؤم السّيكولوجيّ؛ إذ ليس له علاقة ضروريّة بالمزاج الخاصّ؛ بل هو موقف معرفيّ من العالم، إنّه تشاؤم ميتافيزيقيّ قريب من ذلك الّذي اتصف به الفيلسوف «شوبنهاور» في العصر الحديث في كتابه «العالم إرادة وتمثل»، وهو قائم على موقف معرفيّ من العالم؛ هو معرفة مؤدّاها أنّ هذا العالم لا يحتوي معنى يستحق العيش، إنّه عالم مليء بالشّرور والألام، لا يمتلك فيه الإنسان أدنى إرادة غير إرادة الحياة نفسها، وداخل هذه المعرفة يمكن أن يفهم الإنسان الأحداث؛ بل حياته بأكملها، وهذه المعرفة تعينه على الحياة، وتحميه من الصّدمات وخيبات الأمل الّتي قد يقع فيها، فقهدأ نفسه، ولا يعود يطمح إلى أيّ شيء، وفكرة التشاؤم قادته إلى العدميّة نظريًا والأبيقوريّة عمليًا؛ فقد رأى أنّ حياة الإنسان لا شيء إذا انتهت إلى ظلمات القبر والعدميّة، لذلك؛ حُشر الخيّام ضمن الفلاسفة المتشائمين، أمثال: غوتيه، وفولتير، وشوبنهاور.



في ذلك؛ يقول من ترجمة أحمد رامي:

وإنما نحن رخاخ القضاء

ينقلنا في اللّوح أنا يشاء

وكلٌ من يفرغ من دوره

يلقى به في مستقر الفناء

واعتراف الخيّام بالوضع المعقّد للوجود البشريّ - بداية من السّقوط في براثن الزّمن وانتهاء إلى الموت والعدم - جعله لا يأسى على شيء، لذلك؛ نجده - في كثير من الرّباعيّات - يدعو إلى التّمتع بالحياة قدر الإمكان، لتحصيل المستطاع من السّعادة والارتماء في الملذّات والشّهوات - خاصّة - ما تعلّق بالخمرة ومجالس طربها، وبناء على فلسفته اللّاهيّة هذه، حشره الدّارسون ضمن الفلاسفة الأبيقوريّين - نسبة إلى الفيلسوف أبيقور - الذي ارتقى باللّذة إلى مرتبة الحكمة، وجعل تحصيل المتع والملذّات غاية الحياة.

في ذلك، يقول من ترجمة أحمد رامي:

سارع إلى اللّذات قبل المنون

فالعمر يطويه مرور السنين

ولست كالأشجار إذا قلمت

فروعها عادت رطاب الغصون

وقد أنهى قصيدته بالتسليم بالتشاؤم ومحدودية المعرفة والقدرة الإنسانية، ونفاق البشر وريائهم، وذلك بتأكيده على أنّ هناك شيئًا إيجابيًا في العالم - برغم كلّ ما سلف - وأنّ الإنسان لا يستطيع أن يفعل شيئًا في هذه المواجهة غير أن يسلّم أمره إلى إرادة الله، ويخلص في عبادته وتوحيده، ومن هنا؛ يمكن أن نرى التّفاؤل داخل التّشاؤم، بمعنى الوعي بطبيعة هذا العالم، ثمّ السّكون والهدوء تجاهه، والتّخلّص من الفزع والصّدمات.

في ذلك؛ يقول من ترجمة أحمد رامي:

زخارف الدنيا أساس الألم

وطالب الدنيا نديم النّدم



فكن خليّ البال من أمرها فكلّ ما فيها شقاء وهم

## 5 - عمر الخيّام الوجوديّ والمتصوّف:

كان الخيّام ينظر إلى الوجود والحياة والبشر نظرة شاعريّة عميقة؛ «فيرى من الطّبيعة نباتًا ناميًا ونهرًا جاريًا، وطائرًا شاديًا، ومن النّاس جائرًا عاتيًا، ولئيمًا مداجيًا، وتقيًا مرائيًا، فيطرق يفكّر في شأن الإنسان ومصيره، فيعتبر بجهله وغروره، ويتراءى له الوجود فانيًا، والحاضر ماضيًا، والمستقبل حاضرًا، فكان بذلك فيلسوفًا وشاعرًا» (البستاني، 1992م، ص 10)، واستقراء الرّباعيّات يوضّح إيمان الخيّام بالوجوديّة وفكر ها - كتجربة وتيّار جمع بين الأدب والفلسفة - وقاده تبنّي هذا المذهب إلى الشّعور بقلق وجوديّ كان له عظيم التّأثير على فلسفته وفكره، فالبيئة الّتي عاش فيها الخيّام، حيث كثر النّفاق والرّياء، والزّيف والعنف والصّراع، دفعته إلى الشّعور باليأس والعبثيّة، والتّساؤل عن قيمة الصّراعات والشّرور إذا كانت النّهاية هي الموت والفناء.

وفي ذلك؛ يقول من ترجمة أحمد رامي:

نلبس بين النّاس ثوب الرّياء

ونحن في قبضة كفّ القضاء

وكم سعينا نرتجي مهربًا

فكان مسعانا جميعًا هباء

ومن خلال الرّباعيّات راح يبرز اكتشاف المعاني الأساسيّة في الوجود الإنسانيّ: العدم أو الفناء أو الموت، ثمّ الوحدة واليأس والعبثيّة، ثمّ القلق الوجوديّ، ثمّ قيمة الحياة أو الوجود، وفي الأخير؛ تأكيد إيمانه الصّادق والملتزم، والاعتراف بالذّنب، وطلب الصّفح والغفران من الله، وجعل - بذلك - القلقُ الوجوديُّ من الخيّام رجلَ الجمال الباحث عن السّعادة في الحياة (الخمرة)، واغتنام أكبر قدر من الملذّات والرّغبات، شعاره (تمتّع بيومك) (أحبّ ما لن تراه بعد فنائك)، كما جعل الكثير من معاصريه يعانون نفس القلق؛ من رجال دين وزهّاد، ومتصوّفين متجرّدين من الدّنيا وأحوالها، فانين في حبّ الذّات الإلهيّة وجمالها.

وقد كانت الصوفيّة حتّى هذا العهد في مهدها، وكان دعاتها ما بين مبتدع بدعة ومؤمن بها، فكانت ملابس التّديّن والتّقشف تلتبس بوشاح الخشية والتّقوى، فكثر الأتباع والشّيوخ والمريدون، وتدريجيًا، اشتهر التّصوّف وشاع بين النّاس، فكثر التّأويل في تفسير الظّاهر والباطن، ووصل حدّ الغُلو، كما تواترت



الشّطحات الصّوفيّة والكرامات الخارقة الّتي تخالف الشرع، الأمر الّذي جعل الخيّام يتّخذ موقفًا سلبيًا من الزّهاد والصّوفيّة.

وفي ذلك؛ يقول الخيام من ترجمة أحمد رامي:

يا مدّعي الزّهد أنا أكرم

منك وعقلى ثمل أحكم

تستنزف الخلق وما أستقى

إلّا دم الكرم فمن آثم؟

فالخيّام - بفكره الثّاقب ونفسه الحائرة النّاظرة في صلب الأشياء بدل قشورها - لمّح إلى أنّ أثواب زهد الكثير من المتصوّفة ورياءهم؛ إنما تشفّ عن عريّهم من الورع المحمود، وخلوّهم من إخلاص العابد للمعبود، «فلم تغش بصيرته حجب التّضليل، ولا انعقدت لكنته بحجّة القال والقيل، فراح يزيّف أقوالهم، ويزميهم بكلّ سهم صائب من الحقيقة كبدها» (البستاني، 1912م، ص 11)، ومقابل ذلك؛ راحوا يرمونه بالكفر والإلحاد، ولم يكن المتصوّفة وحدهم من انبروا لمهاجمة الخيّام وغيره من فلاسفة عصره؛ بل ساندهم الفقهاء - وكان أبرزهم في ذلك العهد أبو حامد الغزالي - فقد «كان الإمام الغزالي يحضر صباح كلّ يوم عند الخيّام، ويقرأ كتاب الإشارات في الفلسفة والمنطق لابن سينا، وكلّما خرج من عنده يذكره بالسّوء ويتهّمه بفساد العقيدة» (خزعلي، 2006م، ص 34)، ولم يكن الأمر عن عقيدة خالصة، بقدر ما كان تلاؤمًا مع الجوّ العامّ، وخوفًا من الفقهاء الّذين كانـوا بالمرصـاد لكلّ من تسوّل له نفسه أن يخوض في الفلسفة وأفكارها، إلى درجة أنْ كتب الغزالي كتاب «تهافت الفلاسفة» متّهمًا فيه الفلاسفة بالرّدة والكفر.

والواقع؛ أنّ الاختلاف بين الفقهاء والصوفيّة والخيّام راجع إلى اختلاف في المنهج، لا الغاية؛ فإذا كان الفقهاء يعتمدون على ظاهر النّص، والمتصوّفة على الذّوق والحدس والوجدان والقلب؛ فإنّ الخيّام قد اعتمد على العقل والفلسفة والمنطق، للتأكيد على إيمانه بالله ووحدانيّته؛ فكان - حقًا - «إمام خراسان، وعلّمة الزّمان يعلّم علم اليونان، ويحثّ على طلب الواحد الدّيّان بتطهير الحركات البدنيّة، لتنزيه النّفس الإنسانيّة، ويأمر بالتزام السّياسة المدنيّة حسب القواعد اليونانيّة» (ابن القفطي، 1919م، ص 126)، وجوابات عمر الخيّام الفلسفيّة عن أسئلة القاضي الإمام أبي نصر النسوي - تلميذ ابن سينا - عن سرّ الوجود وحكمة الخالق في خلق العالم - خصوصًا - الإنسان، وتكليف النّاس بالعبادات، تؤكّد على أنّ الخيّام اختار طريق الفلسفة بدل التصوّف، والمعرفة بدل العرفان، لإدراك حقيقة الكينونة والوجود والإنسان والقدر والمصير والجبر والاختيار، والتّمييز بين الزّهد الحقيقيّ والزّهد المزيّف، «على أنّ الرجل قد أجاب بما لا يعدوه جواب، فرجع إلى سبب الأسباب؛ وهو واجب الوجود: ما من سبب إلّا وله سبب، إلّا واجب الوجود؛ فلا سبب فرجع إلى سبب الأسباب؛ وهو واجب الوجود: ما من سبب إلّا وله سبب، إلّا واجب الوجود؛ فلا سبب



لوجوده ولا لصفاته» (بكار، 2004م، ص 40)، فتحدّث عن الخالق الحكيم في لهجة صادق يظهر فيها الإخلاص واضحًا جليًا، و «لما قارب الموت، كان يقرأ إلاهيّات ابن سينا، صائمًا عن الكلام والطعام، قائمًا في حضرة المولى يصلّي، لا يرى أحدًا سواه، وأبدى الاعتقاد أنّه لا شيء مع الله، ولا يعلم إلّا هو، وكان كالفاني عن نفسه، الباقي بالله، وقد كان آخر ما قاله: رائعته - بل إعجازه - «اللّهم إنّك تعلم أنّي عرفتك إلى مبلغ علميّ، فاغفر لي؛ فإنّ معرفتي إيّاك وسيلتي إليك» (الشّهروزي، نزهة الأرواح، نقلًا عن الحنفي، 1992م، ص 163).

وفي ذلك؛ يقول من ترجمة أحمد رامي:

إن لم أكن أخلصت في طاعتك

فإنّني أطمع في رحمتك

وإنّما يشفع لي أنّني

قد عشت لا أشرك في وحدتك

وتبعًا لذلك؛ لم يكن الخيّام مجرّد شاعر خمريّات وفيلسوف وجوديّ وحسب؛ إنّما كان متصوّفًا ذا طريقة ومذهب أيضًا، خاصّة، في المرحلة الأخيرة من حياته؛ فنسيج الحياة الّتي عاشها بتعدّد خيوطها وتشكّلها، وبتجدد خبر اتها وتفرّعها، قد فسح المجال واسعًا أمام تجربته الفلسفيّة والصّوفيّ - بنز وعها الشّعريّ الأدبيّ وبمنطقها الذّهنيّ التّجريديّ - أن تتموقع وتتجلّى بكلّ ثراء وتميّز، والرّباعيّات بمتنها الفنّيّ والعقائديّ والفكريّ، دليل على أنّ الخيّام شاعر وفيلسوف متألّه، وحكيم ومتصوّف، بدأ بالمعارف الرّياضيّة ومسائل الكمّ والعدد والحساب، وذهب بفكره إلى الأفلاك، فقاسها وعرفها وأحكم القول في علاقتها بالأقدار، ثمّ تجرّد فدرس الفلسفة، وبحث في الوجود والخلق والحريّة والجبر والاختيار، وارتقى إلى التّفكير في الله، ثمّ الشّعور به، فإنّه: «كان أرضيًا في حياته الأولى، ثمّ توسّط بين الأرض والسّماء، وأخيرًا؛ بلغ الذّرى في تجربته الصّوفيّة الذّوقيّة ...» (الحنفي، 1992م، ص 159)، لقد اجتمعت هذه القدرات الذّهنيّة والجماليّة لتجعل من تجربته الشّعريّة والفلسفيّة والصّوفيّة تجربة خاصّة ومميّزة.



خاتمة:

كانت قيادة الفكر الإغريقي - منذ القرن العاشر قبل الميلاد - في أيدي الشّعر والشّعراء، وكانت السّيادة فيه للخيال والمحاجّة البلاغيّة، ولأنواع متعدّدة من التّقليد الشّفوي؛ فكانت قصائد هوميروس وهزيود شائعة بين النّاس يحفظونها وينشرونها، غير أنّ حدوث مجموعة من التّوترات الدّاخليّة والتّباعدات والقطائع في العالم الذّهنيّ للإغريق، أدّت إلى نشأة نمط فكريّ جديد ارتبط ببنية ثقافيّة جديدة، تجلّت في الكتابة والنّش وأنواع متعدّدة من الفكر المكتوب المعتمد على البرهان والحجّة.

نشأت - من هنا - أواصر التّرابط والتّلاقح بين الفلسفة والأدب، فليست هناك فلسفة دون كتابة، والأمر نفسه ينطبق على الأدب - خاصّة الشّعر - عن طريق اللّغة المعبّر بها في كليهما.

إنّ استعمال اللّغة بهذا المعنى يعني؛ خروج الإنسان من عالمه المادّيّ المقفل، والعيش في عالم رمزيّ مجرّد أكثر انفتاحًا وتحرّرًا، ورباعيّات عمر الخيّام دليل آخر على هذا الاتّصال بين الأدب والفلسفة؛ فقد توفّرت للخيّام كلّ الخصائص الّتي تخلق العبقريّة الشّعريّة والفلسفيّة، وهي: تحرّر الشّخصيّة والمعرفة المبكّرة بالطّبيعة البشريّة، والنّحرّر من الاضطرار إلى كسب القوت اليوميّ، وفي كلمة واحدة - كما يرى نيتشه - (الحرّيّة) لذلك؛ رأى الكثير من النّقاد والدّارسين أنّ الخيام عاش متحرّرًا من قيود عصره وضوابطه؛ بل ذهب بعضهم إلى أنّ التّحرّر بلغ به حدّ شرب الخمر، واختبار نشوة مجالسها ولذّتها، ولم يقتصر حبّه على أثرها في نفسه؛ إنّما أحبّ طعمها المرّ ولونها الصّافي، وأحبّ كأسها الشّفّافة، ودنّها الملآن، كما نجد فئة أخرى من النّقاد ترفض هذا المذهب؛ فالخيّام عندهم وجوديّ، ومتصوّف، وفيلسوف متألّه، وما استحضار الخمر في رائعته الشّعريّة إلّا رغبة في تجاوز الحواس وتغييبها، وفسح المجال واسعًا للفكر أو الذّهن كي يصوغ مفاهيمه ومقولاته النّظريّة، بحثًا عن الحقيقة المطلقة والمعرفة اليقينيّة، وقد عبّر عن ذلك فيلسوف العقلانيّة الحديثة ديكارت بامتياز، حين وصف الوجود البشريّ بأنّه: وجود فاعل طليق ومتحرّر، من خلال كوجيطو الأنا المفكّر، كفكر متعال عن الزمان والمكان.

يصعب إنهاء الكتابة بإصدار حكم حول إشكال تعددت وتنوّعت فيه المواقف والرّوى حول إن كان الخيّام شاعرًا خمريًا متهتّكًا، أم فيلسوفًا وجوديًا ومتألّها صوفيًا، فكلّ ما تراكم عن هذه الذّات الفذّة العظيمة والمتفرّدة، يجعل من الصعب كثيرًا الارتقاء إلى مستواها، والفصل بين إيمانها وكفرها، ويقينها وشكوكها؛ لأنّها خبرت وعرفت ما لم يتيسّر معرفته لأحد، غير أنّ ما يبقى في حكم اليقين؛ أنّ الخيّام - من خلال رائعته المسمّاة «الرّباعيّات» - قد جعل من الشّعر فلسفة، وجعل من الفلسفة شعرًا، ويمكن عدّه - بذلك - شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشّعراء بامتياز.



#### لائحة المراجع:

#### باللّغة العربيّة:

- ابن القفطي، 1919م، تاريخ الحكماء، تحقيق: جوليوس ليبرت، طبعة لايبستج، الهند.
- البستاني وديع، 1912م، رباعيّات عمر الخيّام، وديع البستاني، الطّبعة 1، مطبعة المعارف، شارع الفجالة، مصر
  - البستاني وديع، 1992م، رباعيّات الخيّام، تقديم: مصطفى المنفلوطي، الطّبعة 2، دار العرب للبستانيّ، القاهرة
    - بكّار حسن يوسف، 2004م، جماعة الدّيوان وعمر الخيّام، مؤسّسة العربيّة للدّراسة والنّشر، بيروت.
      - توفيق بدر، 1989م، رباعيّات عمر الخيّام، الطّبعة 1، مطابع أخبار اليوم، مصر
- الجيوسي مصطفى، 2005م، موسوعة علماء العرب والمسلمين وأعلامهم، دار أسامة للنّشر والتّوزيع، عمان الأردن.
  - الحموي ياقوت، 1906م، معجم البلدان، تحقيق: محمد أمين الخانجي، كتاب الميم، مطبعة السّعادة، مصر.
    - الحنفي عبد المنعم، 1992م، عمر الخيّام والرّباعيّات، دار الرّشاد للنّشر والتّوزيع، الطّبعة 1، دمشق.
  - خز على إنسية، 2006م، الخيّام والمعري بين التّشاؤم والتّفاؤل، مجلّة العلوم الإنسانيّة، العدد 13 (6)، طهران.
    - رامي أحمد، 2000م، عمر الخيّام، دار الشّروق، الطّبعة 1، القاهرة.
- زعيميان تغريد، 2003م، الأراء الفلسفية عند أبي العلاء المعرّي وعمر الخيّام، الطّبعة 1، الدّار الثّقافيّة للنّشر،
  القاهرة.
  - الصّرّاف أحمد حامد، عمر الخيّام (عصره، سيرته، أدبه، فلسفته، رباعيّاته)، مطبعة المعارف، الطّبعة 3، بغداد.
    - عبابدة حسن، 2011م، أعلام العرب والمسلمين، المنهل للنشر والتوزيع الإلكتروني، دبي.
  - عطية أحمد عبد الحليم، 2004م، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، سلسلة أوراق فلسفيّة، دار الفارابي للنّشر، بيروت.
    - العقّاد محمود عباس، 1946م، مصادفات في الطّريق، مجلّة الرّسالة، السّنة (14)، العدد 675 10، مصر.
      - كامو ألبير، 1983م، الإنسان المتمرّد، ترجمة: نهاد رضا، الطّبعة 3، منشورات عويدات، بيروت.
      - النَّجفي أحمد الصَّافي، عمر الخيّام، بدون ذكر الطَّبعة، نشرت في دار النَّشر اللَّبنانيّة، 1934م، لبنان.
        - إبراهيم العريض أديبًا، أخبار الخليج، العدد 129.9، بتاريخ 27 حزيران 2013م، البحرين.

#### باللغة الإنجليزية

- Edward Kasner, James Newman, (2001), Mathematics and the Imagination, the Dover Edition, INC, New york.

MominounWithoutBorders

Mominoun You

@ Mominoun\_sm

مؤمنه نوب نوب المحدود Mominoun Without Zorders www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الماتف : 44 212 537 77 99 با

- الفاكس : 21 88 77 73 537

info@mominoun.com

www.mominoun.com